

دراسة

أدبية

■ الشاعر محمد إقبال

في أدبنا الإسلامي
نماذج عدة من
العبريات الفريدة
ستقف عند واحد منها،
تتمثل فيه خصائص
الأدب الإسلامي كلها..
الخصائص العقدية،
والخصائص الفنية،
والخصائص الشمولية
أو مايسميه بعضهم
«العالمية» هذا النموذج
هو نصر أدبي لشاعر
مسلم تجاوز حدود
الإقليمية الضيقة،
وتجاوز حدود اللغة
الواحدة إلى لغات كثيرة
ترجم إليها.

خصائص الأدب الإسلامي

فهو يحس أنه يعيش في حالة مناقضة كل المناقضة
لماضيه الإسلامي المشرق ولا يجد سوى أن يهرب بخياله
من ألم الحاضر إلى عزاء ذلك الماضي المجيد.. يقول:
شكواي أم نجواي في هذا الدجي
ونجوم ليلى حُسدي أم عُوّدي
أُمسيت في الماضي أعيش كأنما
قطع الزمان طريق أُمسي عن غدي
والطير صادحة على أفنانها
تُبكي الربا بانينها المتجدد
قد طال تسهيدي وطال نشيدها
ومدامعي كالطل في الغصن الندي
فإلى متى صممتي كأنني زهرة
خرساء لم ترزق براعة منشد

كل شيء يحمل الحزن ويجسده، الليل، والطير الذي
لا يغرد إنما ينوح السهاد الذي يورق الشاعر والدمع الذي
ينسكب من مآقيه لوحة كاملة من الحزن صنعها واقع
مؤلم، ونفس مؤمنة يثور فيها سؤال كبير، إلى متى يبقى
الأديب صامتاً.. وهل يجوز أن يغمض عينيه عن آلام
مجتمعه ويهرب بخياله الواسع إلى الماضي ليجد فيه
العزاء لنفسه.. وسرعان ما يجد السؤال جوابه: إن صاحب
العطاء مسؤول عن عطائه.. ولا بد له أن ينهض بمسؤوليته،
ويصدق بصوته يقول:

قيثارتي ملئت بأنات الجوى
لابد للمكبوت من فيضان
صعدت إلى شفتي بلابل مهجتي
ليبين عنها منطقي ولساني
أنا ما تعديت القناعة والرضا
لكنما هي قصة الأشجان



بقلم: الدكتور

عبد الباسط عبد الرحمن

● عاش الشاعر محمد إقبال ما بين الربع الأخير من
القرن التاسع عشر والثالث الأول من القرن العشرين.. ولد
بمدينة سيالكوت في إقليم البنجاب الذي أصبح الآن جزءاً
من باكستان، وتلقى علومه الإسلامية في مدارس مدينته
ثم في لاهور، ثم تابع دراسته الأدبية والفكرية في
انجلترا وألمانيا، وعاد إلى بلاده ليعيش هموم المسلم
الصادق في بعديها المحلي والعالمي، هموم المجتمع المسلم
الذي كان يكافح وسط محيط بوذي - هندوسي لتكون له
ذاته المسلمة المستقلة، وهموم المجتمعات الإسلامية
الأخرى التي ترزح تحت وطأة الجهل والتخلف وهجمة
الاستعمار الأوروبي وضرباته الموجهة هنا وهناك.. وكان
الواقع الذي يعيشه إقبال وأمثاله من المفكرين والأدباء
والدعاة أقرب إلى الإحباط واليأس.

● فالحضارة التي صنعتها ممالك إسلامية شتى أفلت
في كل مكان، ومعظم البلاد الإسلامية يحكمها استعمار
أوروبي، يمتص خيراتها ويجتهد في تذويب شخصيتها
وفصلها عن تراثها ومنعها من أن تنهض ثانية، والبلاد
التي تسبح فوق كنوز من الخيرات الوفيرة والمعادن
الظاهرة والمخباة يعيش معظم أهلها تحت مستوى الفقر
كما يقول الخبراء والمحللون.. ومع ذلك.. وفي هذا الواقع
الكئيب المظلم تشرق نفس إقبال كمصباح يتوهج في
القيمة، فيتألق نوره بقدر ماتكون القمة حالكة، ويزداد
أثره بقدر ما تشتد الظلمة ويكتب القصائد القوية المؤثرة،
التي تنطلق من الواقع وتحمل في ثناياها الكثير من آلامه،
لكنها تجعل تلك الآلام معبراً إلى الآمال.. بل إلى اليقين
الذي يملأ النفس ويدفعها إلى الخروج من متاهة الضياع،
والخلاص من عوالم اليأس والإحباط والنهوض، أو القفز
إلى أرض جديدة.

● تبدأ مطولة إقبال هذه بصوت أقرب إلى الأنين، صوت
يحمل معاناة الواقع المظلم، ويشكو إلى الله ما يحس به
الفرد المسلم الداعي آنئذ من ألم ومرارة، فيصور الشاعر
نفسه وقد ملأته هموم المجتمع المسلم، يجلس في الليل
يزفر الزفرات وينازع نفسه في أن يبيت آلامه أم يكتمها..

أدبي في مطولة إقبال

خصائص الأدب الإسلامي في مطوّلة إقبال

وهنا يفتح إقبال الباب واسعاً لأشجانه، أشجان المسلم المؤمن الذي يحمل هموم مجتمعه المسلم فيما أصابه في دينه أولاً.. فضعف المسلمين وتخلّفهم ضعف لشريعة الله في الأرض، وربما عجز عن تطبيقها، وقد أمر المسلم بحملها وتطبيقها.. لذلك تصور شكوى إقبال إلى الله وحده.. شكوى مصاب الدين للدين.. يقول:

أنا ما تعديت القناعة والرضا

لكنها هي قصة الأشجان

أشكو وفي فمي التراب وإنما

أشكو مصاب الدين للدين

يشكو لك اللهم قلباً لم يعش

إلا لحمد علاك في الأكوان

وتفتح الشكوى له باباً واسعاً ينفذ منه ليوقفنا على حجم المصاب وليبدأ أيضاً رحلة التخطي من اليأس إلى الأمل.. وأول خطوة فيها العبور إلى الماضي، لنقف من ناحية على أبعاد المفارقة بينه وبين الواقع، فنذكر حقيقة ما نحن فيه، ومن ناحية أخرى لنستمد من هذا الماضي عزيمة تحيي الأمل في النفوس بعد أن كاد يموت، وينظر إقبال إلى الماضي نظرة شمولية، يقارن فيها بين حال العالم قبل البعثة النبوية، وحاله بعدها، بين تيه الجاهلية وليلها المظلم، وهداية الإسلام ونوره المشرق.. يقول:

قد كان هذا الكون قبل وجودنا

روضاً وأزهاراً بغير شميم

بل كانت الأيام قبل وجودنا

ليلاً لظالمها وللمظلوم

ويستعرض إقبال صوراً من تخطيط البشرية في تيه الجاهلية حيناً تردت إلى هوة الوثنية، وأهانت الجباه، وأسجدتها لحجارة وشجر يقول:

عبدوا تماثيل الصخور وقَدَسُوا

من دونك الأحجار والأشجار

عبدوا الكواكب والنجوم جهالة

لم يبلغوا من هديها أنوارا

وفي ظل هذا التيه تضع قيمة العطاءات والإبداعات،

فكل شئ مرتبط بعقيدة هانت وأهانت الإنسان، ومن ثم فكل مآخرجه من فلسفة وحكمة ملوث بضلالاتها يقول:

قد كان في اليونان فلسفة وفي الـ

رومان مدرسة وكان الملك في ساسان

ويكل أرض سامري مآكر

يكفي اليهود مؤونة الشيطان

والحكمة الأولى جرت وثنية

في الصين أو في الهند أو توران

ويقف إقبال عند موقع التغيير، الذي بدل مفهومات العالم عن الحضارة، وبذل الحضارة نفسها، هذا الموقع هو البعثة النبوية، فيها بدأ تغيير العالم الجاهلي في الأرض إلى عالم إيماني حق، وبالقيم والحضارة الإسلامية والسلوك الذي صنّعه في الأفراد والمجتمعات تبذرت الجاهلية، وأشرق النور، وانتشرت عطور الإيمان يقول:

لما أطل محمد زكت الربا

واخضر في البستان كل هشيم

وأذاعت الفردوس مكنون الشذا

فإذا الورى في نضرة ونعيم

ولكن هذا التغيير لم يحدث في لحظة أو يوم، ولم يحدث تلقائياً ولو شاء الله ذلك لفعل، ولكنه جلت حكمته شاء أن يكون التغيير على يد الجيل الذي رباه رسول الله صلى الله عليه وسلم وامتداداته، وشاء أن يكون بجهاد حثيث يندفع فيه المؤمنون طلباً لإحدى الحسنين: النصر أو الشهادة، وشاء أن يكون ناموساً من نواميس الحياة البشرية، الجهاد في سبيل الله، وبذل الغالي والرخيص عندما تتطلب شريعة الله ذلك، وقد وفى المسلمون الأولون بهذه المتطلبات، وبذلوا في الفتوحات كل ما تطلبه الجهاد منهم: النفس والمال، في غير خوف ولا شح، وهذه الحقيقة يتغنى بها إقبال ليعيد للشخصية المسلمة المحبطة آنئذ قوتها ويصلها بماضيها المجيد.. يقول عن ذلك الماضي:

كنا نقدم للسيوف صدورنا

لم نخش يوماً غاشماً جباراً

كان العبور إلى الماضي في شعر إقبال وسيلة يستمد

الله وتطبيقه في السلوك الفردي والجماعي حتى ليغدو صدر المسلم مصحفاً مسطور فيه القرآن - يقول:
توحيدك الأعلى جعلنا نقشه
نوراً تضيء بصبحه الأزمان
فغدت صدور المؤمنين مصاحفاً
في الكون مسطوراً بها القرآن
وسرعان ما أنبتت تلك التربة السليمة أشجاراً أو ثماراً
وظهرت صفات الشخصية الجديدة في الإيمان الذي يملأ
النفوس، ويوجه السلوك ويصنع الحياة القويمة يقول:
نحن الذين استيقظت بأذانهم
دنيا الخليقة من تهاويل الكرى
نحن الذين إذا دعوا لصلاتهم
والحرب تسقي الأرض جاماً أحمرأ
جعلوا الوجوه إلى الحجاز وكبروا
في مسمع الكون الكبير فكبرا

ويكاد ينفرد محمد إقبال من بين شعراء عصره بهذا
التغني الفخور الطرب بالإيمان، ويصل حباله بحبال الجبل
الأول من الشعراء المسلمين، الذين كانوا يفخرون على
الجاهليين بإيمانهم ويتغنون به بفخر واعتزاز كعبد الله بن
رواحة وكعب بن مالك.. وهذه رؤية إيمانية عميقة لحقيقة
الصفات التي ينبغي أن يفخر بها، المسلم، صفات الإيمان
والهداية التي خصه بها ولعل حرص محمد إقبال على
تقديمها تنبيه قوي لجيله المتعب إلى الصفات التي ينبغي
أن يبدأ صياغة نفسه بها، وإلى الكنز الذي يتفرد بملكته
عن غيره، وإلى القيمة العليا التي يجب أن يحس بها،
فالؤمن عزيز بإيمانه، قوي بعقيدته أولاً.. وهذا الشعور

هو الذي يسهل
عليه الانطلاق
لتغيير واقعه
المرير.. وفي يقيني
أن اهتمام إقبال
بهذه القضية هو



كنا جبالاً في الجبال وربما
سرنا على موج البحار بحارا
ولم تكن دعوة المسلمين بالسيف بل كانت بالخطاب
والتبليغ والسلوك الإيماني فضلاً عن الجهاد والتضحية
يقول:

بمعابد الإفرنج كان أذاننا
قبل الكتاب يفتح الأمصارا
لم تنس إفريقيا ولا صحراؤها
سجداتنا والأرض تقذف ناراً
ندعو جهارا لا إله سوى الذي
صنع الوجود وقدر الأقدار
وكان ظل السيف ظل حديقة
خضراء تنبت حولنا الأزهارا
ورؤوسنا يارب فوق أكفنا
نرجو ثوابك مغنماً وجوارا
يبرز إقبال صورة للشخصية المسلمة التي صنعها
الإيمان، ويبرز من خلالها حقيقة الدعوة والفتوح، ويرد
بهذه الصورة على كل افتراءات المفترين، الذين يدعون أن
الفتوحات ونشر الإسلام إنما كان لأهداف اقتصادية..
وربما كانوا يمرون على الصنم من الذهب فيكسرونه
ليبدوا به الكفر، ليلقنوه مغنماً قريباً.. يقول:

كنا نرى الأصنام من ذهب فنهد (م)
مها ونهدم فوقها الكفار
لو كان غير المسلمين لحاذاها
كنزاً وصاغ الحلي والدينارا
ويواصل إقبال رسم صورة للشخصية المسلمة التي
صقلها الإيمان في ماضيها.. ليجعلها نموذجاً لجيله
الضعيف المحبط، وليريه طريق التغيير الحقيقي، الذي يبدأ
بتربية النفس والعمل الجاد المخلص.

وركز إقبال في قصيدته على أول معلم - ولعله أهم
معلم - من معالم التغيير.. وهو بناء الشخصية المسلمة
المؤمنة السوية، فبدون هذا البناء لا يستقيم عمل - فبنائها
عقدياً وسلوكياً ينطلق من التوحيد ومن استيعاب شرع

لها العزيمة لإحياء الأمل في النفوس

خصائص الأدب الإسلامي في مطولة إقبال

أثر من آثار وعيه الصحيح لحقيقة الشخصية المسلمة،
والحاحه عليها في شعره نتاج تكوين قريحته ووجدانه،
وامتزاج العاطفة بالإيمان.. لذلك يستمر في تغنيه الإيمان
هذا لي شحن جيله المعاصر بمعانيه الفنية المؤثرة يقول
مصوراً ما صنعه المسلمون في العالم:

بلغت نهاية كل أرض خيلنا

وكان أنبحرها رمال البعيد

في محفل الأكوان كان هلالنا

بالنصر أوضح من هلال العيد

في كل موقعة رفعنا راية

للمجد تعلن آية التوحيد

أمم البرايا لم تكن من قبلنا

إلا عبيداً في إसार عبيد

بلغت بنا الأجيال حرياتنا

من بعد أصفاد وذل قيود

ولاشك أن صور المجد الإيمانية هذه ستنتقل كل من
تمتلى بها نفسه إلى عوالم من عزة الإيمان تهون أمامه كل
واقع مرير، وتشحنه بالقوة والإحساس الصحيح بأنه
قادر على أن ينتقل من طين الأرض الموحلة إلى خضرة
الربا والتلال.. وهنا يجد إقبال الفرصة سانحة كي يعود
من الماضي إلى الحاضر.. يعود محملاً بأمجاد الماضي
لينظر في هوان الحاضر آنئذ نظرة صحيح معافى يرى
بوضوح ويشخص الداء.. ليعرف ما الدواء.. وكان
الحاضر كما أسلفت مريراً مليئاً بالجراح والأوجاع، يئن
فيه المسلمون، ويشكو من خالهم إسلامهم، الضعف
والهوان على الآخرين فقد استعلت الجاهلية ثانية، وتأخر
حملة الحضارة الإسلامية وصارت معظم مواطنها نهياً
للثعالب والذئاب.. يقول:

قد هبت الأصنام من بعد البلى

واستيقظت من قبل نفخ الصور

وقوافل الصحراء ضل حداثها

وغدت منازلها ظلال قبور

ويدهش إقبال لما آل إليه حال الإسلام في أبنائه يقول:

ماذا دهي الإسلام في أبنائه

حتى انطووا في محنة وعذاب

فثراؤهم فقر ودولة مجدهم

في الأرض نهب ثعالب وذئاب

ولاشك أن هذه الصورة هي التي أنبتت في نفسه

الهموم وملأتها بالآلام، التي بدأ بها قصيدته.. غير أن

الصورة هنا ليست صورة تيئيس وإحباط.. بل صورة

استشارة واستنهاض، لبدء طريق التغيير والخلاص.

وقد كان إقبال موضوعياً في منطلقاته.. بدأ قصيدته

ببث أمواج الحزن والمرارة لما يراه من واقع المسلمين، ثم

تخطى الواقع إلى الماضي ليثبت عراقة جذورهم وضخامة

قدراتهم ثم عاد إلى تصوير الحاضر ليستثير النفوس،

ويدفعها للخروج من الوهدة التي وقفت فيها.. وكانت

استثارت هذه المرة قوية توصل إلى الحركة وليس إلى

القنوط فقال في لهجة أقرب إلى الاستنكار والاستثارة:

ماذا دهي الإسلام في أبنائه

حتى انطووا في محنة وعذاب

فثراؤهم فقر ودولة مجدهم

في الأرض نهب ثعالب وذئاب

ثم يلتفت إلى الذين تسببوا في ضعف المسلمين أو على

الأقل تسببوا في إشاعة اليأس فيهم إلى المستعمرين،

ويربط بين ما هم عليه من قوة وثراء وبين المسلمين.. فيرى

أن هذا مأخوذ من ذاك.. وهذه درجة عليا من الاستثارة

والاستنهاض، يقول:

عاشوا بثروتنا وعشنا دونهم

للموت بين الذل والإملاق

الدين يحيا في سعادة أهله

والكأس لا تبقي بغير الساقى

ويصرح في أبيات أخرى بأن هذه المقارنة هي التي

تحضه، وهي التي ينبغي أن تكون دافعاً من دوافع التغيير

يقول:

قد هاج حزني أن أرى أعداءنا

بين العلاء والظل والألحان

يكاد يفرد إقبال من بين شعراء عصره بالتث

ونلجج الأنفاس نحن ونصطلي

في الفقر حين القوم في بستان
وهنا يخاطب الشخصية المسلمة النموذجية، التي تحمل
الهدى لنفسها أولاً وللآخرين من ثم، يخاطبها أن تعود
إلى ملء الساحة وقيادة المجتمع إلى التخطي والارتقاء،
ويتوجه بمشاعره إلى قلب العالم الإسلامي إلى مكة
والمدينة، ويرى فيها رمز الهداية ومجمع العواطف. بل
رمز العودة إلى زهو الحضارة الإسلامية وألفتها.. يقول
مخاطباً الشخصية المسلمة:

أشرق بهديك وابتعث النور المضيء (م)

بومضه لفراشك الظلمان

أشواقنا نحو الحجاز تطلعت

كحزين مغترب إلى الأوطان

إن الطيور وإن قصصت جناحها

تسمو بفطرتها إلى الطيران

وهذه الصورة صورة الطيور التي قصت أجنحتها
ولكنها مع ذلك تتواثب لتطير تحمل في دالاتها الأمل، بل
اليقين بأن المسلمين لن يستكينوا لواقعهم المرير، وأنهم
سينهضون بعزم رغم المعوقات لبدأوا التغيير.. وأنهم
متجهون إلى قبلة صلاتهم بقلوبهم.. أي سيجعلون الإيمان
محكمهم الأقوى، وسيجعلون إعلاء دينهم هدفهم الأسمى.

ويختم إقبال مطولته بصور شاعرية رقيقة تسمح آثار
الحزن والهموم، وتشد على أيدي الذين يتجاوزون اليأس
والإحباط إلى العمل الدؤوب المثمر، وكان هؤلاء قلة بين
الناس آنئذ، يشبههم الشاعر بطير تفرد من بين بقية
الطيور بالغناء، في حين عقدت الدهشة والخوف أسنة
الطيور الأخرى. ويشبه المجتمع المسلم في ركوده
واستسلامه للضعف والتخلف والاستعمار في ذلك الحين
بروض ساكن، تعرت أشجاره، وهجرته بلابله.. غير ذلك
البلبل الذي تفرد بالغناء، لتعود بقية الطيور وتشاركه
التغريد، ولتعود الخضرة إلى الأشجار.. ويدعو الله
مخلصاً أن يكون صوت ذلك البلبل.. صوته وصوت
الدعاة ورواد التغيير، قوياً مسموعاً يبلغ أذان الآخرين

ويحرك قلوبهم، ويعيد إليها نبضات الإيمان قوية متوهجة
يقول:

مابال أغصان الصنوبر قد نأت

عنها قماريها بكل مكان

وتعرت الأشجار من حلل الربا

وطيورها فرت إلى الوديان

يارب إلا بلبلاً لم ينتظر

وحي الربيع ولا صبا نيسان

ألحانه بحر جرى متلاطمأ

فكانه الحساكي عن الطوفان

ياليت قومي يسمعون حكاية

هي في ضميري صرخة الوجدان

أسمعهم يارب ما ألهمتني

وأعد إليهم يقظة الإيمان

وتطول بنا الأوقات لو رحنا نستعرض مطولة إقبال بيتاً
بيتاً.. لكننا نجتزئ بتلك الفقرات لنقرأ فيها سطور الإلهام
الشعري والعبقرية الأدبية، ولنرى كيف يصنع الشاعر
المسلم العبقري من قضيته أعمالاً تهز القلوب وتحرك
النفوس..

وكيف تكون عبقريته في مزجه بين الفكر والوجدان، بين
العقل والقلب.. كيف يصوغ من واقعه نسيجاً شعرياً
متميزاً تتلألأ خيوط الإيمان فيه، وتخاطب المسلمين ليس
في بيئته ومحيطه وحسب.. بل في كل بيئة ومحيط،
تستثير كوامن العزة فيهم، وتملؤهم ثقة بشخصيتهم
الإسلامية، وبقدرتها على تخطي مراحل الضعف والتخلف
والانتقال إلى مراحل الريادة الحضارية التي كان عليها
أسلافهم.



في الفخور الطرب.. بالإيمان